

المحاضرة السابعة تبلور علم الاجتماع من خلال إسهامات ماكس شيلر

شهد علم اجتماع المعرفة تطوراً فكرياً عميقاً منذ بدايات القرن العشرين، حيث ساهم عدد من المفكرين الكبار في بلورة أسسه النظرية والمنهجية. إن الفهم المعاصر لسوسيولوجيا المعرفة يقتضي العودة إلى اللحظات التأسيسية التي صاغها ماكس شيلر، وكارل مانهايم، وأرثر شيلد، وجورج غورفيتش. هؤلاء المفكرون لم يقدموا مجرد نظريات، بل أسسوا لمواقف إبستمولوجية ومنهجية متباينة حول طبيعة الحقيقة، ونسبية الوعي، وعلاقة المعرفة بالقوة والزمان والأطر الاجتماعية.

تعد سوسيولوجيا المعرفة أو كما أسماها الألمان "Wissenssoziologie"، أحد أكثر الحقول المعرفية إثارة للجدل داخل العلوم الاجتماعية، وذلك لوقوعها على تخوم الفلسفة والنظرية الاجتماعية. لقد نشأ هذا الحقل محاولة للإجابة عن سؤال إبستمولوجي مركزي: كيف تتحدد المعرفة البشرية، في مضامينها وأشكالها، بالسياق الاجتماعي والتاريخي الذي تنشأ فيه؟

1. السياق التاريخي والفكري

ظهر علم اجتماع المعرفة في بدايات القرن العشرين ضمن التحولات الفكرية الكبرى التي شهدتها أوروبا، خاصة بعد صعود الفينومينولوجيا والنقد الموجه للنزعات الوضعية. يعد الفيلسوف الألماني ماكس شيلر (Max Scheler, 1874–1928) بحق المؤسس الحقيقي لمصطلح "سوسيولوجيا المعرفة" حيث يعد من أوائل من بلوروا مفهوم علم اجتماع المعرفة بشكل صريح. ووضعت أسسه النظرية في سياق ما بعد الحرب العالمية الأولى، حيث سعى إلى التوفيق بين الفلسفة الفينومينولوجية والتحليل الاجتماعي للمعرفة. انطلق ماكس شيلر من فلسفة القيم (Axiology) والظواهرية (Phenomenology) ليؤسس تصوره لعلم اجتماع المعرفة.

يعد شيلر من "أبرز دعاة التوفيق بين المعرفة وعلم الاجتماع، حيث رفض تفسير تطور المعرفة من خلال المعادلات الوضعية السائدة آنذاك، وطرح موضوعاً فينومينولوجياً يعطي لظاهرة المعرفة واستقلاليته". (معتوق، 1982، ص 6) لقد كان هدفه الأساسي يتمحور حول "الجمع بين نمط الحياة ونمط التفكير في تركيبة واحدة لكي يبتعد عن التفسير الغيبية". (خليل العمر، 2007، ص 19) رأى شيلر أن المعرفة ليست نشاطاً عقلياً بحتاً، بل هي ظاهرة اجتماعية تتأثر بالعوامل النفسية والثقافية والاجتماعية، واهتم بدراسة العلاقة بين القيم والمعرفة والمجتمع. حيث حاول تحليل العلاقة بين البنى الاجتماعية وأنماط المعرفة. تكمن أهمية أطروحات شيلر، في أنه أدخل مفهوم علم اجتماع المعرفة بشكل صريح. ربط بين القيم والثقافة

والمعرفة. المعرفة وفقاً له، ليست مجرد انعكاس فردي بل نتاج سياقات اجتماعية وثقافية. حيث قدم نموذج يميز بين الشروط الاجتماعية للمعرفة ومحتواها.

علم اجتماع المعرفة عند شيلر "يصف الشروط الاجتماعية التي تحدد مكونات المعرفة عند جماعة ما، والقوانين التي توزع المعرفة عن طريقها داخل الجماعة من ناحية أخرى. فاككتساب وتوزيع المعرفة يتحدد ويشترط اجتماعياً". (السيد، 2011، ص 157) انطلق شيلر من نقد التصورات التي تربط الفكر بشكل حتمي بالبنية التحتية المادية (كما في الماركسية) أو التي تعتبر المعرفة مجرد انعكاس للبنية الاجتماعية، أو مرآة لتطورها. (كما في الوضعية). رأى شيلر أن هناك عوامل "مثالية" وعوامل "واقعية" تؤثر في المعرفة. كان شيلر يحاول إنقاذ "الروح" من التفسير المادي المبطل، وفي الوقت نفسه الاعتراف بالدور الجاد للعوامل الواقعية في توجيه مسار المعرفة.

2. التفاعل بين العوامل المثالية والواقعية

في عمله الرئيسي "مشكلات علم اجتماع المعرفة" (1924)، الذي توسع لاحقاً في كتاب "أشكال المعرفة والمجتمع" (1926)، يميز شيلر بين العوامل الحقيقية والعوامل المثالية. حيث يرى أن المعرفة لا تتحدد مباشرة بالبنية الاجتماعية، بل تتشكل من خلال تفاعل عاملين رئيسيين:

1.2. العوامل الواقعية Real Factors

وهي الظروف الاجتماعية والمادية مثل: دافع القرابة (الأسرة/ القبيلة/العرق) البنية الطبقية، دافع السلطة (الذي يؤسس السياسة والدولة) دافع الاقتصاد (الذي يؤسس الإنتاج والتوزيع). ويرى شيلر أن العوامل الواقعية لا تحدد مضمون المعرفة بل تحدد شروط ظهورها وانتشارها. بعبارة أخرى، المجتمع يحدد شروط إنتاج المعرفة، لكنه لا يخلق حقيقتها.

العوامل الحقيقية لا تحدد محتوى المعرفة، بل تعمل كـ "بوابات" تفتح أو تغلق أمام تحقق العوامل المثالية. طرح شيلر أطروحة مركزية مفادها أن "الروح عاجزة"؛ أي أن الأفكار وحدها لا تملك القوة لتحقيق نفسها في التاريخ ما لم تجد "عوامل واقعية" تفتح لها الباب. هذا يعني أن المعرفة ليست انعكاساً ميكانيكياً للقاعدة الاقتصادية (كما عند ماركس)، بل تفاعل ديناميكي بين الروح والحياة الاجتماعية. هذه العوامل تحدد "إمكانية ظهور" الأفكار، أي أن العوامل الواقعية لا تخلق الأفكار، بل تعمل بمثابة "صمامات التحكم" فهي التي تحدد أي الأفكار مسموح لها بالظهور والتحقق في فترة تاريخية معينة. إنها لا تخلق المعرفة، بل تتحكم في "انتقاء" الأفكار التي يمكن أن تصبح فاعلة في التاريخ.

2.2. العوامل المثالية Ideal Factors

وهي مجال "الروح" الذي يشمل ثلاثة أشكال عليا من المعرفة:

1. معرفة الخلاص (معرفة دينية): تهدف لخلاص الروح.

2. المعرفة الميتافيزيقية (معرفة جوهرية): تهدف لمعرفة الكينونة.

3. المعرفة الوضعية (العلمية): تهدف للسيطرة على الطبيعة والتحكم فيها.

وهي بذلك، تشمل: القيم، الأفكار، المعتقدات، الأنظمة الفكرية. يذهب شيلر إلى أن محتوى هذه الأشكال المعرفية لا يستمد من المجتمع، بل هو "أبدي" و"جوهري" بشكل ما، لكن المجتمع يلعب دورًا حاسمًا في انتقائها وتطورها وتنظيمها المؤسسي. فالدين والميتافيزيقا والعلم لا تنشأ من البنى الاقتصادية، لكن الطريقة التي يتنظم بها في المجتمع، والفئة الاجتماعية التي تحملها (النخبة)، هي التي تحدد مصيرها التاريخي. جادل شيلر أن "العلاقة بين العوامل المثالية والعوامل الواقعية مجرد علاقة منظمة، فالمجتمع يحدد وجود الأفكار فقط، دون أن يحدد طبيعتها. إذ ليس هناك متغير مستقل يحدد نشأة أو أصل الأفكار، ففي المجتمعات الأمية تشكل روابط الدم أو القرابة متغيرًا مستقلًا، ثم تأتي العوامل السياسية، وفي المجتمعات الحديثة نجد العوامل الاقتصادية التي تربط بها بناءات الفكر الحديث". (السيد، 2011، ص ص 52-53)

3. أشكال المعرفة عند شيلر

ميّز شيلر بين ثلاثة أنواع أساسية للمعرفة:

- **المعرفة التقنية أو الأدواتية:** هدفها السيطرة على الطبيعة، مثل: العلوم التطبيقية. تنشأ من الحاجة العملية للسيطرة على الطبيعة والبيئة وتوظيفها لخدمة الإنسان، وهي أساس العلوم الطبيعية والتكنولوجيا.
- **المعرفة الثقافية:** مرتبطة بالفلسفة والعلوم الإنسانية. ترتبط بالرغبة في تطوير الذات وفهم العالم من أجل ذاته، وهي أساس الفلسفة والعلوم الإنسانية.
- **المعرفة الميتافيزيقية أو الدينية:** تسعى لفهم المعنى النهائي للوجود. تتبع من حاجة الإنسان للبحث عن معنى وهدف نهائي لوجوده.

يظهر هذا التقسيم أن المعرفة عند شيلر ليست كتلة واحدة، بل هي علاقة بين كائن وآخر، حيث "يشارك" العارف في ماهية المعروف. فمعرفة السيطرة ترتبط بالدولة الحديثة والنخب التكنوقراطية، بينما معرفة

التثقيف ترتبط بالمجتمعات التقليدية التي تثنى الفلسفة والفن، ومعرفة الخلاص هي جوهر المؤسسات الدينية.

3. العلاقة بين القيم والمعرفة

من أهم أفكار شيلر القيم موضوعية وليست مجرد نتاج اجتماعي. فمن منظور فينومينولوجي "ركز شيلر في علم اجتماع المعرفة على قيم الفرد وفلسفته، فالدافع الحيوي للفعل الأخلاقي يكون دائماً مقصوداً لقيمة". (السيد، 2011، ص 148) فهو يرفض النزعة النسبية المطلقة، ويرى أن القيم، لها وجود موضوعي، لكنها تدرك بطرق مختلفة تبعاً للظروف الاجتماعية. "لقد رفض النزعة الطبيعية أو النسبية في التنظير السابق لهذا الحقل، وبين أن هناك نظاماً مطلقاً للقيم والأفكار يعنى به عالم مثالي يتميز تماماً عن الواقع والحقيقة التاريخية والاجتماعية". (السيد، 2011، ص 53) يرى أدلر أن "علم اجتماع المعرفة الألماني المناهض للماركسية يمثل ماكس شيلر بشكل أساسي ورؤيته المعروفة للعوامل الواقعية تجعل الفكر ممكناً. وهي رؤية فلسفية بالكامل، ومنهجه الظاهراتي، ليس فقط غير علمي، بل مضاد للعلم". (Adler, 1955, p8)

يحاول شيلر تقديم نظرية تركيبية: المعرفة من حيث الجوهر (metaphysical essence) لا تفسر اجتماعياً، لكن وجودها التاريخي وطريقة تلقيها وتطورها تحددها العوامل الاجتماعية والواقعية. إنه بذلك يرفض المادية المبتذلة (vulgar materialism) كما يرفض المثالية المطلقة (absolute idealism). هذا الإسهام أسس علم اجتماع المعرفة كحقل مستقل، بعيداً عن المثالية الهيغلية والمادية الماركسية، وفتح الباب للنقاشات اللاحقة حول الارتباط الوجودي للمعرفة.